اخطارها الاجتماعية الكبرى وعلى ان العلم الذي ينبت فينا اخذ يفني الضمائر ويجمع شمل المتفرقين ويظهر السرائر ويوحد كلمة المتنافرين ويدير البصائر فيهدينا الى ان التآزر شرط النجاح وان يد الله مع الجماعة وان التباغض عجلة الشر والتعاون يمهد سبل الذل وان في التضاغن تهلكة للناس

لعل رجائي محقق باقبالكم على هذا المكان ملتفين حول راية واحدة مع اختلاف العناصر والمعتقدات ومنبعثين من روح واحدة ألف بين قلوبكم جميعاً فتعارفتم وجئتم اخواناً فرحين بوجه باسم يحيي موجد هذه الروح وباعث ذاك الشعور — العلم

ما خيم الجهل في امة الاَّ اذلها وما ابلج ضوء العلم بين قوم الاَّ عزوا . ايها العلماء ايها العظماء ايها الشعراء والادباء قادة الافكار ودعاة الامة ارشدوا بها فالسبيل واضح . علموا الامة . علموا الامة

وجهة التعليم العصري

اسهبنا القول في تاريخ اصول التعليم وقد رأينا ان مذهب النشوء والارتقاء تناول حياة الانسان الفكرية كما تناول حياتهُ الجسدية . وقد رأينا ايضاً ان زمن التعليم يمكن ان يقسم الى ثلاثة ادوار رئيسية . الدور الاول وهو مقدمة التعليم ينطوي تحتهُ التعليم الشرقي والتعليم اليوناني والتعليم الروماني والتعليم في العصور الوسطى . وهذا الدور تخصصت بهِ الاجيال طويلاً ولكن قلما نجد للتجربة فيهِ مكاناً وقد كان ابن الصدف فلهذا لا ترى الوحدة فيهِ

اما الدور الثاني فمثل زمن الاصلاح زمن الافاقة من سبات العصور الوسطى . زمن هدم القديم ومحاولة البناء على اسس فلسفية فكان هذا الدور دور المحاربة والهدم

اما الدور الثالث فهو دور البناء . دور التقدم على اسس علمية متينة وهو وان لم يسر بنا بعيداً الى الامام في بادىء الامر الاَّ ان لهُ التقدم والتفوق على غيرهِ في انهُ لم يرجعنا الى الوراء . ففي هذا الدور نرى ان التجربة كانت العامل الاكبر لاكتشاف الحقائق لان الفلاسفة لم يبنوا آراءهم على خيالات فلسفية بل على حقائق عملية راهنة[1] على انهُ في تنقل

(١) انني في تقسيم ادوار التعليم الى ثلاثة اقسام كبيرة خالفت الرأي الاكثر الشائع بين علماء التعليم ظناً مني ان ذلك يكون اقرب تناولاً . واتبعت المبدأ الذي يوافق رأي كونت في ترقي العقيدة الفكرية في الانسان (Comte's Positive philosophy)

مبادىء التعليم من دور الى آخر يجب ان لا يظن ان كل دور منفصل عن الآخر بل ان النتائج والمسببات التي كان لها التأثير الاكبر في ابراز دور من الادوار الى حيز الوجود بقيت سائرة الى الادوار التي اتت بعدها يزيادات في تفسيرها وبناء عليها

فتاريخ التعليم هو تاريخ العقل الانساني في تقلبه وتنقله من حالة بسيطة الى ما هو ارقى منها . لان ترقي الانسان ليس الا ترقي العقل واخذه على عاتقه تنظيم الهيئة الاجتماعية لتكون ملائمة لحياة الانسان فيعيش الفرد فيها حرًّا في افكاره مستقلاً بشؤونه بحسب النظامات الصحيحة العادلة التي تسنها هذه الهيئة[1] وقد ذكر ديفدسون Davidson ان العلوم الطبيعية التي هي مفتاح التهذيب — هي التي تقود الانسان الى هذا النظام وذلك اذا سارت جنبًا الى جنب مع الاديبات . وقد توسع في معنى هذا النظام حتى سماه بالعقل[2]

في الدور الاول وهو الحالة الثيولوجية البسيطة كان عقل الانسان يفسر الطبيعة بقوانين الهيَّة في طبيعتها — اي انهُ كان ينسب الى الاله جميع ما يجري حولهُ من الامور التي فوق ادراكه . اما في الدور الثاني وهو دور العبور ويسمى بالمتافيسيكي اي ما وراء الطبيعة فقد حلت الفلسفة محل اللاهوت غير ان البحث في الاسباب الاولية والنتائج التي تنجم عنها كان لا يزال على حاله

ولكن عند ما وصلنا الى الدور الثالث وهو الدور العلمي المحدود صرنا نكتفي بدرس مظاهر الطبيعة وحالاتها البسيطة التي تقع تحت نظرنا كل يوم ونجتهد في جمع هذه تحت قوانين ليست شاملة كما في الادوار السابقة بل محدودة وقابلة التغيير كل يوم

التعليم الاختياري — فلذلك نرى ان وجهة التعليم العصري اليوم هي من هذا القبيل . والدور اليوم علمي محدود وهو اختياري اكثر منهُ حتمي وغايتهُ ان يوفق بين آراء الادوار الماضية و يأخذ منها ما يوافق الزمن الحاضر ويترك ما يراهُ عملاً بالمدنية ووافقا سدًّا منيعًا بين التقدم والارتقاء . فعمل المدارس الحاضرة اذاً ان تجمع كل النظريات العملية السابقة وتجعلها عملية لافادة الجمهور . والغاية التي يسعى اليها المدرسون او علماء التهذيب ان يأخذوا كل التقاليد والتجارب والاختيارات الماضية ويكيفوها ليجعلوها موافقة للزمن الحاضر . لان بعض ما كان مفيداً ولازماً في الازمنة الماضية قد يكون مضرًّا في زماننا هذا . وتلك

(1) Comte's Law for the succession of the three states.
(2) Davidson Philosophy of Education.

التقاليد والتجاريب التي عادت على الاسلاف بالنفع والخير قد تكون لنا سبباً للويل والشر . فكما ان لكل زمان دولة ورجالاً كذلك لكل زمان علوم واختبارات وتقاليد

ولا يغرب عن الذهن ان الدور الحاضر مركب من اجزاء الدور السيكولوجي والعلمي والاجتماعي . فالدور السيكولوجي قدم الاسلوب والعلمي اعطى الموضوع او المادة والاجتماعي وسّع نطاق التعليم وجعل لهُ غاية اعظم فشمل الانسانية على العموم . ولبيان ذلك نقول . انهُ مرّت ادوار كان القصد منها في التعليم تعلّم المسائل الدينية والاشتغال بالمجادلات والمماحكات الكلامية كما كانت عليهِ الحال في القرون الوسطى ومجادلات المدرسيين كما مر . ثم جاء دور كان الغرض فيهِ درس النظامات الحربية كما حدث في زمن الاقطاع . اما اليوم فان نظام التعليم اوسع جداً مما كان عليهِ قبلاً ولما كان هذا الدور مركباً من الادوار السابقة يلزم لنا لايضاح ذلك ان نذكر ما قدمهُ كل دور

اخذ هذا الدور عن روسو « ان التعليم هو الحياة وان مركزهُ يجب ان يكون في الولد » وعن بستالوتسي « ان التعليم الفعّال يتوقف على معرفة الولد الحقيقية والشعور بآلامهِ وافراحهِ واحزانهِ وانهُ هو النموّ الداخلي المؤثر في المحيط الخارجي ولذلك فالتعليم الاساسي يجب ان يتوقف على الحقائق وليس على الرموز والامثال وعلى الادراك وليس على الذاكرة » وقدم هربرت « الاسلوب العلمي في التعليم وفي ترتيب لائحة الدروس وان الاخلاق الحميدة هي الغاية من التعليم وان لائحة الدروس العلمية يجب ان توصل التلميذ الى هذه الغاية » . وقدم فروبل مبدأ الفكر الصحيح من جهة طبيعة الولد . ولما كان الولد يرغب من حيث طبيعتهُ في الالعاب والحركات الرياضية وجب ان يتشأ التعليم من ذلك الاساس . وان المدرسة يجب ان تكون عالماً مصغراً امام التلميذ . وجاء من الدور العلمي مبدأ التحريض على تحديد معنى التعليم الكامل . وقد جاء الدور الاجتماعي داعماً لهذا المعنى وذلك حينما وضع في جدول المدارس باب الصنائع والعمليات والميكانيكيات . فنتج من كل ذلك ما ندعوهُ « بالرجل المدني الحرّ الكامل النمو العارف معنى المدنية الحقة » . وجاء من الدور الاجتماعي ان التعليم هو نموّ الهيئة الاجتماعية وان غايتهُ اعداد مدنيين حقيقيين وان هذا يتم بالنمو الكامل في شخصية الفرد وان نموّ هذه الشخصية يجب ان يلائم الفرد لهذه المدنية ويعدهُ للاشتراك في الاعمال الاجتماعية ويؤهلهُ لادراك هذه الحقيقة الناصعة وهي ان منفعتهُ الذاتية تتوقف على ما يقدمهُ للاخرين من المنافع

النهضة التعليمية الحالية

مما يلاحظهُ المعلم في هذه الاثناء سرعة تغيير جدول الدروس المتتابع ليكون ملائماً للحالة الحاضرة ليعبر عما يتخللها من الشؤون الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والادبية . وعلماء التعليم يحاولون اليوم ان يجعلوا الاسلوب التعليمي عملياً عاماً واضحاً . فمن ثم نجد في التعليم اتحاد الادوار السيكولوجية والعلمية والاجتماعية معاً . ثم ان تغير الاحوال الاقتصادية ولد الاختصاص والمركزية في التعليم . وهذه المركزية تشابه في اكثر الوجوه المركزية السياسية اي وضع ادارة التعليم في مركز واحد ترجع اليهِ كل المدن والقرى في شؤونها التعليمية . ومثال المركزية فرنسا ومثال اللامركزية انكلترا . اما المانيا فهي بين المركزية واللامركزية واميركا سائرة في طريق المركزية مع شدة المعارضين لها . وقد نتج عن المركزية جعل صناعة التعليم مهنة رسمية كالطب والمحاماة والهندسة وغيرها . وفي العالم المتمدن نهضة يقصد بها تجريد المدارس من التعاليم الدينية وجعل التعليم فيها مدنياً عالمياً عملياً محضاً . فترى ان المواد الدينية التي كانت الشغل الشاغل للمدارس في القرون السابقة اصبحت المدارس اليوم تجتهد ان تنبذها من جدول دروسها ولكن في ذلك صعوبة لا تخفى ولا ندري هل تقوى الحكومات كلها على تذليلها كما فعلت فرنسا واميركا واليابان . ومن الغريب ان اليابان جعلت للفضائل مقاماً كمقام الجغرافيا والحساب فوضعتها في جدول دروسها وخصصت لدرسها وقتاً معيناً في النهار . فالتلامذة يدرسون الامانة والصدق والاستقامة كما يدرسون مبادىء الطبيعيات والهندسة . فالذي تطلبهُ مدارس الوقت الحاضر هو معرفة الانسان كيف يجب ان يعيش والآداب اللازمة لحياة نافعة في مدنية عصرية « معقدة » اضطرت الى نبذ البساطة في اعمالها . فمجال التعليم اذاً يجب ان يكون اوسع مما كان طيهِ قبلاً والتعليم المدرسي يجب ان يكون عملياً ذا نفع للتلميذ وقائداً الى السلوك الحسن . ونرى اليوم ايضاً ان الحكومات والاغنياء يصرفون الاموال الكثيرة في ترقي العلم والتعليم وهذه النفقات تزداد كل يوم والاغنياء يتسابقون الى تقديمها

اتفاق اللذة والعمل في التعليم

المدارس الحالية هي الموفقة بين اللذة والعمل وذلك بعكس ما كانت عليهِ المدارس قبلاً فانها كانت تشغل عقل التلميذ مثلاً بدرس آداب اللغة بقصد التمرين العقلي لا بقصد المتعة واللذة . فكانت في عملها هذا كالرجل الذي يقصد تغذية جسمهِ وتقوية عضلاتهِ بطعام لا لذة فيهِ ولا طعم . فاللذة وحدها لا تكفي وكذلك العمل ولكن اذا اتحدا معاً حصلت

منهما الفائدة المطلوبة واتحادهما يقوم بجعل الدروس المدرسية تطابق حياة الولد الحقيقية وهذا يتم بان يضع المعلم امامهُ ما يقع تحت حواسهِ في حياتهِ الخارجية والداخلية من الامور التي يرتاح اليها عقلهُ ويسرُّ بها فؤادهُ وتقرُّ لها عينهُ . فمعنى التعليم الحالي هو توازن الحقوق الشخصية والواجبات الاجتماعية لكي لا تتغلب احداهما على الاخرى فلا الفرد يتعدى حقوقهُ ولا الجماعة واجباتها . ولا يضرُّ النفع الخاص بالنفع العام

جدول الدروس

المدنية الحالية لا تعتبر جدول الدروس فرضاً مقدساً خالياً من كل عيب بل هو الجدول الذي يضع امام التلميذ ما عملهُ اسلافهُ ويريهِ ما حولهُ من الشؤون . وجدول مثل هذا يتغير بتغير الاحوال والازمنة والامكنة . فما كان نافعاً للقرن التاسع عشر قد لا ينفع القرن العشرين . وما الجدول الاَّ الدليل الذي يعرّف التلميذ بالحياة لانهُ لما كان التلميذ جاهلاً الحياة التي يرى فيها وجب ان يكون لهُ مرشد يقودهُ لكي لا يعثر وهو سائر في بحر العالم المضطرب ومثلهُ في ذلك مثل السائح الذي يصحب معهُ ترجماناً يدلهُ على المواضع التي لم تطأها قدمهُ قبلاً لكي يكون على بصيرة في ذهابهِ وايابهِ

الاسلوب

معرفة ما تقدم ذكرهُ تتوقف على الاسلوب والقاء الدروس . فالاسلوب هو ارشاد التلميذ لاستعمال قواهُ حتى يمكنهُ ان يرى في نفسهِ الاختبارات التي سعمها من المعلم عن اسلافهِ . واسلوب المعلم يتوقف على معرفتهِ طبائع التلميذ . فعليهِ ان يعرف الاشياء التي يلتذ بها الولد ويقف على مداركهِ واستعدادهِ ونشاطهِ . وعليهِ قبل ذلك ان يعرف موضوعهُ الذي يحملهُ حق المعرفة وكيفية القائهِ في ذهن السامع

صعوبتنا الحاضرة

قضية التعليم الحالية قائمة باعطاء كل جيل اختبارات الاجيال السابقة وذلك بان ينتقي المعلم منها ما هو مفيد ونافع وينبذ ما يراهُ ضاراً ثم يلخص تلك الاختبارات ويكيفها ليجعلها ملائمة للجيل الحاضر . هذا ما يتعلق بالمعلم اما ما يتعلق بالهيئة الاجتماعية فهو ان لا تضن على المعلم بما تراهُ ضرورياً ولازماً لحياتهِ بل تدعمهُ وتشرف مقامهُ وتزيل كل الصعوبات التي تراها في طريقهِ لكي يهذب الاحداث والناشئة التي اودعت في يدهِ تهذيباً حقيقياً لا يقالهُ نقص ولا خطاء الى غاية ما يجد اليهِ السبيل

بولس شحاده